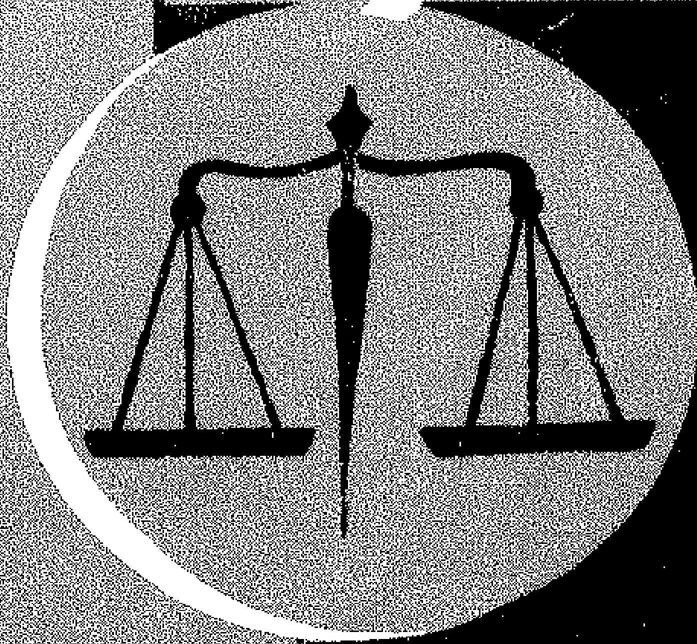
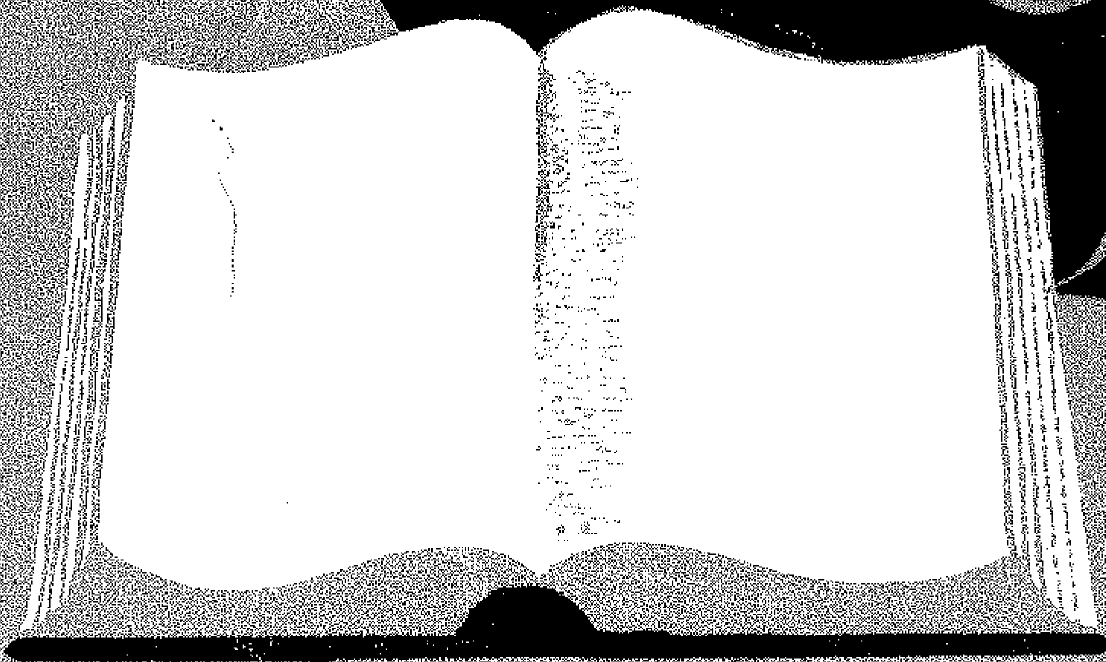
أخلاق القرآن

عفو رحمة سلام





الدكتور عبد الوهاب عزام



أخلاق القرآن



EL NOOR STATIONERY

8, Elahram Str.
Heliopolis - Cairo
: 2584563

مكتبة النور

٨ شارع الاهرام روكسي - مصر الجديدة
٢٥٨٤٥٦٣ :

أخلاق القرآن

دكتور عبد الوهاب عزام



بسم الله الرحمن الرحيم

نحمدك ربنا حمداً يليق بجلالك ، فلا حصر لنعمك ،
ولا حدود لفضلك ، ونصلي ونسلم
على أشرف عبادك
وأكمل خلقك

أخلاق القرآن

للدكتور عبد الوهاب عزام

أعرض في هذه السطور القليلة أمهات الأخلاق في القرآن ، كيف بينها الكتاب الكريم وكيف دعا إليها بعد أن أقدّم مقدمة وجيزة تبين المقصد الآخر الذى قصد إليه القرآن من تربيته وتعليمه :

سئلت عائشة رضى الله عنها عن الرسول صلوات الله عليه ،فقالت ، كان خلُقه القرآن . فأخلاق القرآن هى التى تجلت في محمد خاتم النبيين وأصحابه ومن تبعهم وسار على نهجهم من بعد . وإنما يظهر صلاح القانون حين إنفاذه ، ويتبين سداد الرأى حين يختبره العمل ، و يُعرف رشاد الطريقة حينما تهدى السائرين عليها إلى الغاية المثلى . فإذا أردنا أن نقدر أخلاق القرآن فإنما نتبينها في سيرة من عملوا بالقرآن .

كل ما يزدان به تاريخ الإسلام من سير الملوك والولاة والقواد والقضاة والعلماء والصالحين وغيرهم ، فهو أخلاق القرآن تتجلى في صور مختلفة . فإن رأيت ملكا من المسلمين ملك الدنيا ولم تملكه ، وسيطر على الأرض ولم تسيطر عليه ، فساس عباد الله بعدل الله ، وأتعب نفسه ليريح رعيته ، وراقب فيهم ربه ليله ونهاره ، فهذا من أخلاق القرآن . وإن رأيت والياً دخلت الدنيا يده ولم تدخل قلبه وكفَّ يده عن المحارم ولم يأل جهداً في العمل لخير الناس ، فهذا من خلق القرآن كذلك . وإن رأيت قائداً يحتقر المهالك ، ويقذف بنفسه في المعارك ، يفتح البلاد ولا يُعنت العباد ، قد ملكت القناعة قلبه ويده ، وكفّه العدلُ عن العدوان ، فهذا خلق القرآن في أحد مظاهره . وإن رأيت قاضياً كدّ عقله في معرفة الحق والتثبت ، وآثر العدل جانب الجور وأخلص لله فكره وحكمه ، وأقضّ مضجعَه عظمُ التبعة ، فذلك من قضاة القرآن . وإن

رأيت عالماً توجه إلى الله بفكره ، وأدام النظر في ملكوت السموات والأرض ، ودأب في البحث ابتغاء الحق لا يميل مع الهوى ولا يرجو إلا وجه الله فهو من علماء القرآن .

عدل أصحاب السلطان ، وجهاد المجاهدين بالحق وإحسان المحسنين في كل عمل وطلب الحق والصبر عليه ، ودفع الظلم والنفور منه ، والاضطلاع بأعباء الحياة ، والصبر على المكاره والثبات في الشدائد ، كل ذلك من أخلاق القرآن . والخلاصة أن الحياة في أقوى مظاهرها ، وأحسن وجوهها ، وأعدل سيرها ، وأرحم قوانينها ، وأجل أعمالها ، كل أولئك تقصد إليه أخلاق القرآن .

من يتدبر القرآن يعرف أن القصد الآخر الذى ترمى إليه تربية القرآن هو أن يُحرّر الإنسان من أهوائه وشهواته، وأن تقوى نفسه بالأخلاق القوية القويمة، وأن يزوّد عقله بالمعرفة ، ثم أن يعمل بهذه النفس المحررة القوية وهذا العقل القويم في معترك الحياة مبتغياً الخير لنفسه وللناس كافة . ذلكم مقصد القرآن فيما يعلّم من الأخلاق .

يريد القرآن نفساً محررة من الأهواء والشهوات ، وسأبين هذا من بعد ، ولكني أسارع فأقول هنا : ليس معنى التحرر من الشهوات الحرمان منها ؛ فإن القرآن يريد للناس أن يستمتعوا بهذه الحياة ، ولا يزوّروا عنها ويتجنبوها :﴿ يا بنى آدم خذوا زينتكم عند كل مسجد وكلوا واشربوا ولاتسرفوا إنه لا يحب المسرفين ﴾ . ﴿ قل من حرم زينة الله التى أخرج لعباده والطيبات من الرزق ؟ قل هي للذين آمنوا في الحياة الدنيا خالصة يوم القيامة ﴾ ﴿ وابتغ فيما آتاك الله الدار الآخرة ولا تنس نصيبك من الدنيا ، وأحسن كما أحسن الله إليك ، ولا تبغ الفساد في الأرض ، إن الله لا يحب المفسدين ﴾ .

القرآن لا يدعو إلى الرهبانية ولا يرضاها ، وإنما يدعو الإنسان إلى أن يرمىَ بنفسه في معارك الحياة مزوداً بالأخلاق القوية الفاضلة ، مريداً الخير لنفسه وللناس حتى يعيش راضياً مرضياً . فمن اعتزل معارك الحياة فقد فرّ من الواجب ، وجنح إلى الراحة ، وآثر البطالة . وليس تمسكه بالأخلاق الفاضلة بعد هذا إلا كما يتسلح الجندى ثم يترهب في دير . العبادة الحق في شرعة الإسلام هى الجهاد في هذه الحياة . كل عمران في الأرض ، كل إحسان إلى النفس أو الأقرباء أو الأصدقاء أو عامة الناس أو إلى الحيوان الأعجم ؛ كل هذا عبادة يأمر بها الإسلام بل يعدها أفضل العبادات . وقد قال أحد صوفية المسلمين : « ليست الولاية أن يمشى الإنسان على الماء أو يطير في الهواء ، ولكنها أن يعمل الإنسان في الأرض فيزرع أو يتجر أو ينعم بالعيش وهو لا يغفل عن الله طرفة عين » ومن أجل هذا كانت المرابطة في الثغور ، أى حماية حدود البلاد ، من أفضل العبادات عند المسلمين . وكم يحدثنا التاريخ عن علماء أتقياء أقاموا في الثغور ورابطوا العدوّ ، ويرون أن عبادتهم وورعهم لا يغيبان عن هذه المرابطة شيئاً ولأن المرابطة عبادة سمىّ الصالحون في بعض البلاد الإسلامية مرابطين وسمىّ رباطاً المكان الذى يعتكف فيه المتعبدون .

إنما يريد القرآن من التحرير من الشهوات أن يسيطر الإنسان على نزعاته فيلائم بينها وبين الحق والخير ويفعل أو يكف حرًا بعقله لا عبداً بهواه.

مقصد الإسلام الأخير هو تحرير النفس من الأهواء والشهوات وتقويتها بالأخلاق الفاضلة وتحرير العقل من الأهواء كذلك ، وتقويته بالمعرفة ، ثم العمل بنفس محررة قوية ، وعقل حرّ واسع ، في أرجاء هذه الأرض لخير الناس . فأما التحرر من الهوى فقد أمر به القرآن في آيات كثيرة وافتنّ في الدعوة إليه بأساليب مختلفة . يقول القرآن الكريم : ﴿ **يا داود إنا جعلناك خليفة في الأرض فاحكم بين الناس بالحق ولا تتبع الهوى فيضلك عن سبيل**

الله . ﴾ ويقول : ﴿ أفرأيت من اتخذ إلهه هواه وأضلّهُ الله على علم وختم على سمعه وقلبه وجعل على بصره غشاوة ؟ ﴾ ويقول :﴿ أفمن كان على بيّنة من ربه كمن زين له سوء عمله واتبعوا أهواءهم . ﴾ ويقول : ﴿ وأما من خاف مقام ربه ونهى النفس عن الهوى فإن الجنة هي المأوى . ﴾ .

أرأيت كيف ينهى القرآن عن الهوى ويعده معطلاً لمعارف الإنسان وعقله وسمعه وبصره ويراه رأس كل ضلالة ؟

اشتد القرآن في النهى عن اتباع الأهواء ، حتى نهى عن الأخذ بالظن ، لأن الإنسان إذا لم يسر على بينة مال به الهوى الخفى وأوحى إليه الظنون المختلفة : فيظن الحق باطلاً ، والباطل حقاً ، والخير شراً ، والشر خيراً ، كما ينزع هواه وتميل نفسه . وما أكثر ما نهى القرآن عن الظن ، قال : ﴿ ياأيها الذين آمنو اجتنبوا كثيراً من الظن إن بعض الظن إثم ﴾ ، قال : ﴿ إن يتبعون إلا الظن وما تهوى الأنفس ﴾ ، وقال : ﴿ مالهم به من علم إن يتبعون إلا الظن وإن الظن لا يغنى من الحق شيئاً ﴾ . بل بيّن القرآن أن ضلال الناس ناشيء عن اتباع الظن فقال : ﴿ وإن تطع أكثر من في الأرض يضلوك عن سبيل الله إن يتبعون إلا الظن ﴾ .

هكذا يشتد القرآن الكريم في الدعوة إلى تحرير النفس والعقل من الأهواء وتبرئتها من الظنون ، ليقارب الإنسان الصواب جهده ، وتستقيم له طريقة الفكر فطريقة العمل .

وأما تقوية النفس وتهذيبها بالأخلاق الفاضلة ، فسيأتى بيانه حين نفصل الكلام في الأخلاق التى دعا إليها القرآن . وأما تقوية العقل وتقويمه وتزوده

بـالمعرفـة ، فقـد دعـا القرآن إلى الانتفـاع بـالعقل والنظر في ملكوت السموات والأرض وجعل الـذين لا ينتفعون بعقولهم كالأنعـام أو أضل ، وقـال : ﴿ **قـل انظروا مـاذا في السموات والأرض ـ أولم ينظروا في ملكوت السموات والأرض وما خلق الله من شيء ـ قل سيروا في الأرض فانظروا** ﴾ ولفت القرآن النـاس إلى مظـاهر الكون ودعـاهم إلى التفكير فيهـا ليتعرفوا أسرارهـا ﴿ **إن في خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار ، ومـا أنزل الله من السماء من مـاء فـأحيـا بـه الأرض بعـد مـوتهـا وبث فيهـا من كل دابـة ، وتصريف الريـاح ، والسحـاب المسخر بين السماء والأرض لآيـات لقـوم يعقلـون** ﴾ وكثير في القرآن مثـل هـذا ، ومـا هـذا النظر إلا وسيلـة المعرفـة ، وهل أنتج معـارف البشر إلا النظر في ملكوت السمـوات والأرض ؟ وقـد أمر القرآن بـالاستزادة من العلم فقـال : ﴿ **وقـل ربِّ زدني علمـا** ﴾ وأمـا العمل فهو المقصد الذى يقصد إليه القرآن من تعليم الأخلاق الفاضلة ، فالقرآن كما قـدمنـا لا يريـد رهبـانيـة ولا فراراً من الجهـاد ولا خـوراً وإشفـاقـا من الاضطلاع بـأعبـاء الحيـاة ، وإنما يريـد العمل والـدأب والجهـاد . أمر القرآن بالعمل وأشاد بـذكر العـاملين في آيـات كثيرة ، وبين أن تـدافع النـاس سبب لعمران الأرض ، ﴿ **ولـولا دفـع الله النـاس بعضهم ببعض لفسـدت الأرض** ﴾ وبين أن الخير لا يدوم إلا بالدفاع عنه والاجتهاد في حمايتـه ﴿ **ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لهدمت صوامع وبيع وصلوات ومساجد يذكر فيها اسم الله كثيراً ولينصرن الله من ينصره** ﴾ .

ولم يقبل القرآن عذر الأذلاء الذين يعتذرون بـالعجز عن العمل أو بتغلب الأقويـاء عليهم ، وصـدهم إيَّـاهم عن الخير فقـال : ﴿ **الـذين تتوفـاهم الملائكـة ظالمي أنفسهم قالوا فيم كنتم ؟ قالوا كنا مستضعفين في الأرض قـالوا ألم تكن أرض الله واسعة فتهاجروا فيهـا ؟** ﴾ . فهو يـدعو إلى الهجرة حيث يستطيع

الإنســان العمــل ﴿ ومن يهــاجر في سبيــل الله يجــد في الأرض مراغمــاً كثيراً وسعة ﴾ .

ذلكم إجمال الكلام فيا يقصد إليه القرآن من تهـذيب النفس وإصلاح الخلق والجهـاد في الأرض . وهـو الـذى بينتـه أفعـال الرسـول وأصحـابـه ومن تبعهم بإحسان ، فقد خلق القرآن الجماعة الفاضلة ، وخلقت الجماعة الدولـة ، وأيـدت الدولة الحق والعدل ، وسيطرت على الأمم تسومها بعدل الله طوعـاً أو كرهـاً . ولا تزال دعوة القرآن مسموعـة ، ولا يـزال المثـل للنـاس مضروبـاً ، ولا يـزال الأمل معقوداً بأن تحيي هـذه الـدعوة الأخلاقيـة الأمم مرة أخرى . ولا يزال في هـذه الأرض خصب وبركـة ، و لا يـزال في السحـاب برق ورعـد ومطر ، ولا يزال في هذه النفوس حياة وفي هذه القلوب خير .

* * *

العــدل

بينت قبلاً أن القرآن يريـد بتعليمـه الأخـلاق تحرير الإنسـان من أهـوائـه وشهواتـه وتزويـد عقلـه بـالمعرفـة ، ودفعـه إلى العمـل في معترك الحيـاة لخيره وخير الناس ؛ ووعدت أن أتحدث عن أمهات الأخلاق في القرآن ، فاليوم أبـدأ الحديث بالعدل :

العدل القرآنى هو العدل المطلق الشامل الذى لا يختلف بين زمان وزمان ، ومكان ومكان ، وأمــة وأمــة ؛ والـذى تستـوى فيـه نفس الإنســان وغيره ، ويستـوى فيـه القريب والبعيـد ، والصـديـق والعـدو ، ويستـوى فيـه الرضـا والغضب ، والحب والبغض ، والنفع والضرر . هـو أن يعطى الإنسـان كل ذى حــق حقــه في كل حين وفي كل أرض ، وعلى كل حــال . يقضى على نفســه بالحق ، ويقضى لغيره بالحق ويعطى من يكره بالحق ويحرم من يحب بالحق ، ويعمل العمل فيه ضره إيثاراً للعدل ، ويكف عن العمل فيه إيثـاراً للعـدل . هو أن يعترف بإحسان غيره ولا يبخس الناس أشيـاءهم ، ويعترف بـإسـاءتـه ، ولا يحب أن يحمد بما لم يفعل وأن ينقاد لرأى غيره حين يتبين لـه أنـه الحق ، ويسرع الرجوع عن رأيه حين يعرف فيه الباطل .

والعدل القرآني أن يصرّف الإنسان أمور نفسـه وأمور النـاس على قـانون لا عوج فيه ولا زيغ ولا استثناء ولا ظلم ولا محاباة ، وأن يسيّر أعماله على قانون إلهي لا تبديل فيـه ولا تحويل ، كالقوانين التي تسيّر : الشمس والقمر والنجوم والرياح ، وتصرّف العالم كله كما يشاء الله .

يقـول القرآن الكريم : ﴿ **والسماء رفعهـا ووضـع الميزان ، ألا تطغـوا في الميزان ، وأقيمـوا الـوزن بـالقسـط ولا تخسروا الميزان ، والأرض وضعهـا للأنام** ﴾ ، أليس في هذه الآية الكريمة إشارة إلى أن العدل الذى يـأمر الله بـه

هو قانون من قوانين الله بثّه في خليقتـه . فهو قـد رفع السماء ووضع الميزان في خليقته ، كل شيء مقدّر بقـدره ، وكل شيء محـدود بحـدوده ، كما قـال في آيـة أخرى : ﴿ **والأرض مـددنـاها وألقينا فيها رواسي وأنبتنا فيهـا من كل شيء موزون** ﴾ . وكذلك أمر الله الناس أن تكون أعمالهم في هذه الأرض على هـذه الشاكلة لتستقيم أمورهم وتعتدل معايشهم ، فليس عـدل الله أمراً يسيراً تتصرف فيه الأهواء ، وتتلاعب به الشهوات والعصبيات . ليس عدل الله أمراً مما يبـاع بـاليسير من متـاع الحيـاة الـدنيـا ، ويهجر للحقير من أهواء النفوس ، ولكنـه نظـام في العـالم وفي الاجتماع البشرى لا يستقيم شيء فيهما بـدونـه كما جـاء في الحديث الشريف : بالعدل قامت السموات والأرض .

وآيـة أخرى من القرآن تجعـل العـدل أول صفـات الله التى يقـوم بهـا على خلقه : ﴿ **شهد الله أنه لا إله إلا هو ، والملائكة وأولو العلم ، قائماً بـالقسـط ، لا إله إلا هو العزيز الحكيم** ﴾ .فقد شهـد الله وشهـد أولو العلم من عبـاده أنـه تفرد بالألوهية قائماً بالعدل في خلقه .

وآية أخرى تبين أن الله أوحى للناس علمـه وشرائعـه مع العـدل ، ليقوموا بالعـدل في معـايشهم وهو الغـايـة التى من أجلهـا أنزلت الشرائع . استمع هـذه الآية الكريمة :

﴿ **لقد أرسلنا رسلنا بالبينات وأنزلنا معهم الكتاب والميزان ليقوم الناس بالقسط** ﴾ .

وأخرى من الآيـات تبين أن أوامر الله وأحكامـه قـائمـة بـالصـدق والعـدل لا تتحول عنها : ﴿ **وتمت كلمة ربك صدقاً وعدلاً لا مبدل لكلماته** ﴾ .

يبيّن القرآن أن الله جعل العدل نظاماً للعالم ، وقياماً للخلق ، وأمر به في كثير من آيـاتـه ، وحث المـؤمنين على أن يكـون ديـدنهم القيـام بـالعـدل بين

الناس ، والشهادة لله على الناس بالعدل ، وأن ينزهوا العدل عن الهوى فلا يميلهم عنه حب ولا كره . قال في سورة النساء : ﴿ **ياأيها الذين آمنوا كونوا قوامين بالقسط شهداء لله ولو على أنفسكم أو الوالدين والأقربين إن يكن غنياً أو فقيراً فالله أولى بهما فلا تتبعوا الهوى أن تعدلوا . وإن تلووا أو تعرضوا فإن الله كان بما تعملون خبيراً .** ﴾ وقال في سورة المائدة : ﴿ **ياأيها الذين آمنوا كونوا قوامين لله شهداء بالقسط ولا يجرمنكم شنآن قوم على ألا تعدلوا . اعدلوا هو أقرب للتقوى واتقوا الله إن الله خبير بما تعملون** ﴾ .

أمر في الآية الأولى أن يقوموا بالعدل ويشهدوا به لله . ولايميلوا عنه لمحبة النفس أو الوالدين أو الأقربين . وأمر في الآية الأخرى ألا يميلوا عن العدل مع من يبغضونهم فقال : ﴿ **ولا يجرمنكم شنآن قوم على ألا تعدلوا** ﴾ يعني لا يحملكم بغض قوم على أن تعاملوهم بغير العدل

وقال في سورة الأنعام :

﴿ **وأوفوا الكيل والميزان بالقسط ، لا تكلف نفسٌ إلا وسعها ، وإذا قلتم فاعدلوا ولو كان ذا قربى وبعهد الله أوفوا ذلكم وصاكم به لعلكم تذكرون** ﴾

والآيات التي تأمر بالعدل كثيرة حسبنا منها الآية الجامعة : ﴿ **إن الله يأمر بالعدل والإحسان وإيتاء ذى القربى وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغى ، يعظكم لعلكم تذكرون** ﴾

ويشتد القرآن فى النهي عن الظلم كما يشتد في الأمر بالعدل ويبين عاقبة الظلم في الأمم بأساليب شتى ؛ والظلم في لغة القرآن وضع الأمر في غير موضعه أو الخروج عن الحق . فالمجرم ظالم ، والكافر ظالم ، والمشرك ظالم ، والكاذب ظالم . يقول : ﴿ فمن أظلم ممن افترى على الله كذباً أو كذب

بآياته ﴾ . ويقول : ﴿ وإذ قال لقمان لابنه وهو يعظه يابُنَيَّ لا تشركْ بالله إن الشرك لظلمٌ عظيم ﴾ . ويحكي القرآن عن آدم وحواء حين تابا : ﴿ قالا ربنا ظلمنا أنفسنا وإن لم تغفر لنا وترحمنا لنكونن من الخاسرين ﴾ .وما هذا الظلم إلا مخالفتها ما أُمرا به .

وعاقبة الظلم هلاك ودمار للفرد والجماعة والأمة . قلّ أن يذكر القرآن هلاك أمة أوبلد إلا بيّن أنها أهلكت بظلمها . يقول في سورة الأنبياء : ﴿ وكم قصمنا من قرية كانت ظالمة وأنشأنا بعدها قوماً آخرين ﴾ . وفي سورة الحج : ﴿ فكأين من قرية أهلكناها وهي ظالمة فهي خاوية على عروشها ، وبئر معطلة وقصر مشيد ﴾ . ﴿ وكأين من قرية أمليت لها وهي ظالمة ثم أخذتها وإليّ المصير ﴾ . وفي سورة هود : ﴿ تلك من أنباءالقرى نقصه عليك منها قائم وحصيد . وما ظلمناهم ولكن ظلموا أنفسهم ، فما أغنت عنهم آلهتهم التى يدعون من دون الله من شيء لما جاء أمر ربك وما زادوهم غير تتبيب . وكذلك أخذّ ربك إذا أخذ القرى وهي ظالمة إن أخذه أليم شديد ﴾ .

هذا العدل المطلق الذي بينه القرآن وأمر به يقتضي الجزاء الحتم . فكل إنسان مجزىّ بعمله خيراً أو شرًا . العدل يقتضي أن يميّز الخير من الشر والمحسن من المسيء . يقول القرآن : ﴿ ولا تستوي الحسنة ولا السيئة ﴾ ويقول : ﴿ أفنجعل المسلمين كالمجرمين . مالكم كيف تحكمون ﴾ ﴿ أم حسب الذين اجترحوا السيئات أن نجعلهم كالذين آمنوا وعملوا الصالحات سواءً محياهم ومماتهم ؟ ساء ما يحكمون ﴾ بل يقرن القرآن الجزاء بخلق السموات والأرض ﴿ وخلق الله السموات والأرض بالحق ولتجزى كل نفس ما كسبت وهم لا يظلمون ﴾

فالجزاء حتم على كل صغيرة وكبيرة وليس للإنسان إلا عمله ، ليس في الناس مقربون إلى الله ولا مبعدون عنه إلا بالعمل .

يقول : ﴿ **وأن ليس للإنسان إلا ما سعي وأن سعيه سوف يرى ثم يُجزاه الجزاء الأوفى** ﴾ ويقول في الرد على من زعموا أن لهم مكانة عند الله تخرجهم من هذا القانون العام قانون الجزاء : ﴿ **ليس بأمانيكم ولا أمانيّ أهل الكتاب ؛ من يعمل سوءًا يُجزَ به ولا يجد له من دون الله ولياً ولا نصيراً ، ومن يعمل** مِنَ الصالحات من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فأولئك يدخلون الجنة ولا **يظلمون نقيراً** ﴾ ﴿ **فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره ، ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره** ﴾ .

ومن هذا العدل المطلق والجزاء الحتم أباح القرآن أن يقابل الشر بمثله من غير بغي . قال : ﴿ **وقاتلوا في سبيل الله الذين يقاتلونكم ولا تعتدوا إن الله لا يحب المعتدين** ﴾ وقال : ﴿ **فمن اعتدى عليكم فاعتدوا عليه بمثل ما اعتدى عليكم واتقوا الله** ﴾ ويقول : ﴿ **ذلك ومن عاقب بمثل ما عوقب به ثم بُغي عليه لينصرنّه الله** ﴾ وفي سورة الشورى يوضح هذا أتم إيضاح . يقول في مدح المؤمنين : ﴿ **والذين إذا أصابهم البغي هم ينتصرون ، وجزاء سيئةٍ سيئةٌ مثلها . فمن عفا وأصلح فأجره على الله إنّه لا يحب الظالمين . ولمن انتصر بعد ظلمه فأولئك ما عليهم من سبيل . إنما السبيل على الذين يظلمون الناس ويبغون في الأرض بغير الحق أولئك لهم عذاب أليم** ﴾ . فمن حق الإنسان أن يردّ البغي عن نفسه في غير عدوان ؛ وأن يلقى السيئة بمثلها وينتصر ممن ظلمه ، وله أن يعفو ويصفح إن رأى في العفو خيراً .

ذلكم العدل الذي بثه الله في خليقته ، وأمر به عباده ، وجعل فيه صلاحهم ، وفي تركه دمارهم . فمن شاء الخير لنفسه وللناس فليلزم العدل في كل صغيرة وكبيرة ، وليكن كما أمر القرآن قائماً بالقسط شهيداً لله .

إن الأمم تتهافت في النار ، وتعود على ما شيّدت بالخراب والدمار ،

بما فقدت العدل وكفرت به ، واتخذت لأنفسها شريعة من الباطل والزور والبغي . يريد المغترون بقواهم أن يسيطروا على الأرض بالباطل ، زاعمين أنهم يسيطرون عليها بالحق ، لايرون لغيرهم حقاً ، ولا لأطماعهم حداً ، ولو أنصف الناس فقاموا في خلق الله بالقسط ، وجعلوا الحق شريعة بين الناس . ونبذوا العصبية للباطل ، ورفعوا عن أعينهم غشاوة الهوى ما سُخرت عقولهم وعلومهم وصناعاتهم للإهلاك والتدمير ، ولما قذفوا بأنفسهم في جهنم وهم يستطيعون أن يعيشوا في جنة على هذه الأرض .

داء الأمم الظلم ودواؤها العدل ـ العدل الشامل المطلق الذى لا يختلف باختلاف الأزمان والأوطان والشعوب والأديان . إنما يأخذ الله الأمم بجرائرها عسى أن تثوب إلى رشدها وتتبين الطريقة المثلى التي حادت عنها ، وإن في ذلك لعبرة .

ويقول القرآن الكريم : ﴿ **ولقد مكناهم فيما إن مكناكم فيه وجعلنا لهم سمعاً وأبصاراً وأفئدة ، فما أغنى عنهم سمعهم ولا أبصارهم ولا أفئدتهم من شيء إذ كانوا يجحدون بآيات الله وحاق بهم ما كانوا به يستهزئون . لقد أهلكنا ما حولكم من القرى وصرفنا الآيات لعلهم يرجعون** ﴾ ... صدق الله العظيم .

* * *

الوفاء بالعهد

الوفاء بالعهد خُلق يقتضيه الإنصاف والصدق ، وتوجبه المروءة وكرم النفس ، وتحتمه الرجولة والنبل . ما أصغر وما أذل وما أخس النفس التي تتخذ عهدها وسيلة إلى التغرير بمن تعاهده ، وتجعل يمينها سبيلاً إلى أن تفجئه وهو آمن مطمئن . الغادر كاذب حانث خادع ، قد جعل كلامه وعهده حبالة لمآربه ، حبالة واهية ذليلة كحبالة العنكبوت يصيد بها الذباب ، ودبّ من وراء الأمن إلى خصمه كما تدب الثعالب والذئاب . أين هذا من الإنسانية في أخلاقها العالية ، والرجولة في سجاياها الحرة ؟ وأين هذا من أخلاق القرآن كتاب الإنسانية الكاملة ؟ .

القرآن الكريم يأمر بالوفاء بالعهد ، ويؤكد الأمر به ، يعظم شأنه ، ويكبر الموفين ، وينهي عن الغدر ، ويشتد في النهي عنه ، ويقبحه ، ويلعن الغادرين .

من يتدبّر آيات القرآن يجد العهد فيها ضربين : العهد العام ، والعهد الخاص ؛ فأما العهد العام فهو أداء الواجب الذي يقتضيه عمل الإنسان ، فمن تولي عملاً فقد عاهد أن يفي به على الوجه الأكمل . فإذا لم يفعل فقد خالف العهد ، ومن آمن بدين فقد عاهد أن يأتمر بأوامره وينتهي بنواهيه فإن لم يفعل فقد نقض العهد . ومن دخل في جماعة فقد عاهدها على أن ينفعها ولا يضرها ، فإن ضرّها أو قصّر في نفعها فقد غدر . ومن تصدى للدفاع عن أرض أو جماعة أوعقيدة فقد عاهد ألا يألو جهداً في الدفاع . فإن نكص فقد خان . ومن أوتي علماً أو عرف حقاً فكأنه عاهد أن يبينه للناس ليهتدوا به ، فإن كتمه فقد خان بعهده . وهكذا .

نقرأ في الكتاب الكريم : ﴿ وإذ أخذ الله ميثاق الذين أوتوا الكتاب

لتُبيِّنُنَّه للناس ولا تكتمونه ، فنبذوه وراء ظهورهم واشتروا به ثمناً قليلاً فبئس ما يشترون ﴾ ﴿ وإذا أخذ الله ميثاق النبيين لما آتيتكم من كتاب وحكمة ثم جاءكم رسول مصدق لما معكم لتُؤمِنُنّ به ولتنصرنه . قال أأقررتم وأخذتم على ذلكم إصري ؟ قالوا أقررنا . قال فاشهدوا وأنا معكم من الشاهدين . ﴾﴿ وإذ أخذنا من النبيين ميثاقهم ومنك ومن نوح وإبراهيم وموسى وعيسى بن مريم . وأخذنا منهم ميثاقاً غليظاً . ليسأل الصادقين عن صدقهم وأعد للكافرين عذاباً أليماً . ﴾ .

فهذه مواثيق عامة تضمنتها رسالة الأنبياء وعلم الذين أوتوا الكتاب ، كأن النبوة عهد على الوفاء بما تقتضيه الرسالة من الدعوة والإصلاح والنصب واحتمال الأذى والصبر وكأنها عهد على أن ينصر النبيُّون الحق وينصروا من جاء به .

وكذلك العلم الذي حَمل أهل الكتاب أمانته .هو عهد عليهم أن يعلّموه الناس ويظهروه غير مبالين ما ينفعهم وما يضرهم في إظهاره ، وكذلك كل من عرف حقاً وهُدي إلى معرفة ، وكل من ولي ولاية للناس ، وكل من وكل إليه عمل ، كل هؤلاء كأنهم عاهدوا الله والناس على أن يُعرّفوا الناس ما عرفوا وأن يؤدوا أعمالهم على الوجه الأحسن .

ومن ذلك قول القرآن الكريم في وقعة الأحزاب : **﴿ من المؤمنين رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه ، فمنهم من قضى نحبه ومنهم من ينتظر وما بدلو تبديلاً . ليجزى الله الصادقين بصدقهم .﴾** .

فهذا العهد هو ما التزمه المسلمون حين قبلوا الإسلام من القيام بفروضه ونصرته والدفاع عنه والاستماتة في تأييده .

والقسم الثاني من العهد الخاص : معاهدة رجلين أو فريقين على أن يسالم بعضهم بعضاً وأن يجتنبوا الضر فيا بينهم ، أو تحالف فريقين على أن يتعانوا على عمل ، وهكذا ؛ وهذه العهود شائعة بين الناس منذ اجتمعوا واحتاج بعضهم إلى بعض وخشي بعضهم بعضاً .

وقد حث القرآن على الوفاء بالعهد كله وبالغ في الأمر به . يقول في سورة الأنعام : ﴿ **وإذا قلتم فاعدلوا ولو كان ذا قربى . وبعهد الله أوفوا . ذلكم وصاكم به لعلكم تذكرون** ﴾ . وفي سورة الإسراء : ﴿ **وأوفوا بالعهد إن العهد كان مسئولاً** ﴾ .

وفي سورة النحل : ﴿ **إن الله يأمر بالعدل والإحسان وإيتاء ذي القربى ، وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغي . يعظكم لعلكم تذكرون . وأوفوا بعهد الله إذا عاهدتم ولاتنقضوا الأيمان بعد توكيدها وقد جعلتم الله عليكم كفيلاً . إن الله يعلم ما تفعلون . و لا تكونوا كالتي نقضت غزلها من بعد قوة أنكاثاً ، تتخذون أيمانكم دخلاً بينكم أن تكون أمة هي أربى من أمة إنما يبلوكم الله به ، وليُبَيّنَنّ لكم يوم القيامة ما كنتم فيه تختلفون . ولا تشتروا بعهد الله ثمناً قليلاً ، إنما عند الله هو خير لكم إن كنتم تعلمون** ﴾ .

يأمر الله سبحانه في هذه الآيات الجامعة بالعدل والإحسان وصلة الأرحام ، وينهي عن الفحشاء وكل منكر ، وعن البغي على الناس . وهذا أمر بكل خير ونهي عن كل شر .

ثم يخص الوفاء بالعهد فيأمر به ويسميه عهد الله ، وكل عهد بين اثنين يسمى عهد الله . لأن الله رقيب على أعمال الناس ، وقد أمرهم بأن يصدقوا ويحسنوا ويفوا بالعهود ، ولان العهد قسم بالله وشهادة لله على

الوفاء . وأكد الأمر بقوله : ولا تنقضوا الأيمان بعد توكيدها ، وقد جعلتم الله عليكم كفيلاً . فالإنسان حين يعاهد يشهد الله على عهده ويجعل الله كفيلاً عليه بالوفاء ، فكيف تنقض صفقة تكفّل بها الله ؟ إن الإنسان ليتخذ كفيلاً من وجهاء الناس فيحرص على الوفاء بعهده إكراماً لهذا الكفيل وحياء منه ، فكيف بمن جعل كفيله الله ؟ ثم نهاهم أن تكون أمورهم لعباً وعبثاً ، يبذلون وعودهم وعهودهم وأيمانهم ثم ينقضونها ، كالمرأة الحمقاء التي غزلت ثم نقضت غزلها ؛ ذلك عبث وصغار لا ترضى به النفوس الكريمة الكبيرة الحرة . ثم نهاهم أن يفعلوا ذلك ويتخذوا أيمانهم غشّاً وفساداً إذا لاح لهم نفع في نقض العهد ، إذا وجدوا أن جماعة عاهدوها هي أقل عدداً وقوة من جماعة لم يعاهدوها ، فهم يريدون أن ينقضوا عهد الضعيف ليرضوا القوى أو يحالفوه . وهذا معنى قوله : ﴿ **أن تكون أمة هي أربى من أمة** ﴾ . ثم قال : ﴿ **ولا تشتروا بعهد الله ثمنا قليلاً** ﴾ . يعني : لا يحملكم على نقض العهد نفع تنالون من وراء نقضه ، فإن كل ما تنالون بنقض العهود هو ثمن قليل في جانب هذا الأمر العظيم . وكل ربح تتوهمونه في ذلك خسران كبير .

وقد أثنى القرآن كثيراً على الموفين بالعهد ، قال في وصف المؤمنين المفلحين : ﴿ **والذينَ همْ لأمانـاتهم وعهدهم راعون** ﴾ وقال في وصف الخيرين البررة : ﴿ **والموفون بعهدهم إذا عاهدوا** ﴾ . وقال : ﴿ **إنما يتذكر أولو الألباب الذين يوفون بعهد الله ولا ينقضون الميثاق** ﴾ . وقال :﴿ **بلى من أوفي بعهده واتقى فإن الله يحب المتقين** ﴾ .

هذه إشادة القرآن بالموفين بالعهد ، وثناؤه عليهم بكل خير تعظيماً لهذا الأمر العظيم .

وأما الذين لا يوفون بعهودهم فقد ذمهم القرآن وشنع عليهم فقال :

﴿ **والذين ينقضون عهد الله من بعد ميثاقه ويقطعون ما أمر الله به أن يوصل ويفسدون في الأرض أولئك هم الخاسرون** ﴾ . وقال في موضع آخر : ﴿ **والذين ينقضون عهد الله من بعد ميثاقه ويقطعون ما أمر الله به أن يوصل ويفسدون في الأرض أولئك لهم اللعنة ولهم سوء الدار** ﴾ . وقال في جماعة من أهل الكتاب نقضوا العهد : ﴿ **فبما نقضهم ميثاقهم لعنّاهم وجعلنا قلوبهم قاسية** ﴾ . واستمع إلى هذه الآية الهائلة التي تبين غضب الله على من ينقض العهد ابتغاء منفعة : ﴿ **إن الذين يشترون بعهد الله وأيمانهم ثمناً قليلاً أولئك لا خلاق لهم في الآخرة ، ولا يكلمهم الله ولا ينظر إليهم يوم القيامة ولا يزكيهم ولهم عذاب أليم .** ﴾ .

وقد أخرج القرآن ناقض العهود من الإنسانية وجعلهم من الدواب بل جعلهم شر الدواب في قوله :

﴿ **إن شر الدواب عند الله الذين كفروا فهم لا يؤمنون الذين عاهدت منهم ثم ينقضون عهدهم في كل مرة وهم لا يتقون** ﴾ .

ألا ترى أنه جعل الذين كفروا شر الدواب ثم وصفهم وصفاً يلائم هذه الحال فأخبر أنهم لا يثبتون على عهد كلما عاهدوا نقضوا عهدهم . كما قال في آية أخرى : ﴿ **أو كلما عاهدوا عهداً نبذه فريق منهم ؟** ﴾ .

راعى القرآن العهود وأعظم شأنها حتى أوجب الدية في قتل غير المسلم من قوم معاهدين ، ولم يوجبها في قتل المسلم من قوم غير معاهدين .

تلكم شرعة الإسلام في رعاية العهود ، وهي التي سار عليها المسلمون في سلمهم وحربهم فكانوا أوفى ذمة وأثبت عهداً ... تنطق بذلك سيرهم منذ جاءهم الإسلام حتى اليوم . كان للعهد عندهم حرمة لا تمتهن ، في

السراء والضراء ، والشدة والرخاء . كان العهد الذي يعطيه أقل رجل من المسلمين ولو عبداً ـ نافذاً على المسلمين جميعاً لا يقبل تأويلاً ولاتبديلاً .

إن حفظ العهود ليلقي الأمن والطمأنينة في نفوس الأفراد والأمم ويقيم أمور الناس على شريعة من المودة والإنصاف والتعاون . وإن العالم ليزلزل اليوم بما استخف بالعهود واتخذها وسيلة إلى المطامع ؛ فلم يركن الناس إلى معاهدة ، ولم يأمنوا الغدر والمفاجأة .

فصاروا في ريبة وحيرة ، وزال ما كان يثبت الأمم من مواثيق تؤمن بها وتركن إليها وتسير في تدبيرها عليها . صار الوعد لا يدل على الوفاء ، والعهد لا يؤمن من الغدر ، فاضطرب الناس فهم في أمر مريج .

وقد حدثنا القرآن عن بلاد أهلكت وأخبرنا أن مما أهلكوا به استخفافهم بالعهد فقال : ﴿ أو لم يهد للذين يرثون الأرض من بعد أهلها أن لو نشاء أصبناهم بذنوبهم ونطبع على قلوبهم فهم لا يسمعون . تلك القرى نقص عليك من أنبائها ولقد جاءتهم رسلهم بالبينات فما كانوا ليؤمنوا بما كذبوا من قبل ، كذلك نطبع على قلوب الكافرين . وما وجدنا لأكثرهم من عهد وإن وجدنا أكثرهم لفاسقين ﴾ ... صدق الله العظيم .

* * *

الإحســــان

الإحسان الإتيان بالحسن من القول أو الفعل . والإحســان خلق ينزع بصــاحبـــه إلى الحسن من كل شيء ، وينفر بــه عن القبيــح من كل شيء ، ويطمح به إلى الأحسن فالأحسن رُقيًا في درجات الكمال .

فعل الخير إحسان ، وتأدية الواجب إحسان ؛ ولكن أكثر مـا يقـال الإحسـان للتبرع الذي يزيد على أدنى درجات الواجب ، وللتفضل بأكثر مما يطلب . وذلك درجات يعلو بعضها بعضاً حتى تنتهي إلى الكمال .

في كل عمل درجات من الإحسان يختلف فيها المتسابقون إلى الخير ، ينال أدناها كثير من الناس ، ثم يقلّون كلما علت الدرجات حتى ينقطع معظم النـاس دون الـدرجـات العُلى فـلا يبلغهـا إلا أفـذاذ من الأخيـار المحسنين .

وفي كل صنعة درجات من الإحســان يتنـافس فيهـا الصنـاع إلى أن يستأثر النـابغـون بـدرجـات يقف دونهـا الـدهمـاء والأوسـاط والأفـراد والجماعات والأمم تتفاوت في الضروريات كالطعـام والشراب اللــذين يمسكان الحيـــاة ، والملبس الــذي يقي الجسم عـوادي الحر والبرد ، بـل يستـوي في ذلـك الأمم التي تـزال في درك الهمجيـة والأمم التي بلغت في الحضارة مكاناً علياً ،. وإنما يتفاوت الناس في الحاجيـات والكماليـات تفاوتاً بعيداً ، يقاس بما بين طعام الهمج وملبسهم ومعاملاتهم وبين نظـائر أولئك في الأمم التي توفر نصيبها من الحضارة .

وكـذلـك يعظم تفاوت النـاس في الإحسـان . الواجبـات يحتمهـا القـانون أو العرف ، وفوق الواجبات ضروب من التبرع في المعاملـة أو الإتقـان في الصناعة يتلاحق فيها الناس إلى درجة الكمال أو ما يقرب منها .

وفي النـاس من يقنـع بـأداء الـواجب ، وهـو الـدرجـة الـدنيـا من الإحسـان ، وفي النـاس من لا يعرف في الإحسـان حـداً ، ولا في الكمـال غـاية ؛ طماح كلمـا بلغ درجـة استشرف لما فـوقهـا والنفـوس الكريمـة تنزع إلى العـلاء نـزوعـاً دائمـاً ، وتتطلـع إلى الكمـال كل حين . تحس في سريرتهـا دعـوة من الله العلي تـدعـوهـا إلى الرفعـة وتهيب بهـا إلى الكمـال ، وترى النقص في كل درجـة فـوقهـا درجـة ، لا أعني درجـات من الغنى والجـاه والسلطـان ، ولكن درجـات من الخير والمـواسـاة والرحمـة ، وتكميـل النفس في معارفها وعواطفها ، درجات من النظام والجمال في عقل الإنسان وخلقه وبيئته وكل ما يتصل به . رحم الله أبا الطيب الذي قال :

ولم أر في عيـوب النـاس شيئـاً   كنقص القـادرين على التمام

رحم الله النفس الطماعـة اللوّامـة التي لا تحـدّ طمـوحهـا غـايـة ، النزاعـة إلى الخير والكمال في غير نهاية . إنما يسيّر الله خلقـه إلى الكمـال بـأمثـال هـذه النفوس ، ويهديهم إلى المثل العليا بأفعالها وأقوالها .

وقـد جـاء في الحـديث أن الرسـول صلـوات الله عليـه سئـل : مـا الإسـلام ؟ فقـال : أن تعبـد الله ولا تشرك بـه ، وتقيم الصـلاة وتـؤدي الـزكاة المفروضة ، وتصوم رمضان ثم سئل : ما الإحسان ؟ فقال : أن تعبد الله كأنـك تراه ، فإن لم تكن تراه فإنه يراك . فقد جعل الرسول الإحسان تـأدية العبادة على أحسن الوجوه وأن يبلغ بها العابد أعلى الدرجات .

قـد أرشـد القرآن الكريم إلى هـذا في قـولـه : ﴿ **ليس على الـذين آمنـوا وعملـوا الصـالحـات جنـاح فيا طَعِمـوا إذا مـا اتقـوا وآمنـوا وعملـوا الصالحات ، ثم اتقـوا وآمنـوا ، ثم اتقـوا وأحسنـوا ، والله يحب المحسنين** ﴾ . جعل الإحسان نهاية التقوى والعمل الصالح .

والقرآن الكريم يأمر بالإحسان كله : الإحسان بفعل الحسن واجتناب القبيح ، والإحسان بمجاوزة الحسن إلى الأحسن . وقد أكّد الأمر به وكرره وبيّن مكانة المحسنين من الله سبحانه وجزاءهم عنده .

بيّن القرآن أن الله تعالى أحسن خلق الناس وأحسن خلق كل شيء . قال : ﴿ **ذلك عالم الغيب والشهادة العزيز الرحيم ، الذي أحسن كل شيء خلقه وبدأ خلق الإنسان من طين** ﴾ . وقال : ﴿ **الله الذي جعل لكم الأرض قراراً والسماء بناءً وصوركم فأحسن صوركم ورزقكم من الطيبات ، ذلكم الله ربكم فتبارك الله رب العالمين** ﴾ . وإذا كان خلق الله كله إحساناً فهذا العالم أولى به الإنسان ، وأقرب إلى سنته وإلى مرضاة خالقه .

بل بيّن القرآن أن الغاية من الحياة والموت والعمران استباق الناس إلى الإحسان وتنافسهم فيه .

قال : ﴿ **الذي خلق الموت والحياة ليبلوكم أيكم أحسن عملاً** ﴾ وقال : ﴿ **إنا جعلنا ما على الأرض زينة لها لنبلوهم أيهم أحسن عملاً** ﴾ .

أمر الكتاب الكريم بالإحسان في العمل إذ قال : ﴿ إن الله يأمر بالعدل و **الإحسان** . ﴾ والإحسان هنا إما أن يكون فعل الحسن وإما أن يكون زيادة على العدل . فالعدل إيتاء كل ذى حق حقه ، والإحسان أن يعطي الإنسان ما لا يلزمه ويفعل أكثر مما يطلب منه . ومهما يكن فهذا وذاك يأمر به القرآن ويدعو إليه ويحث عليه .

وأمر بالإحسان في القول إذ قال : ﴿ **وقل لعبادى يقولوا التي هي أحسن** . ﴾وقال : ﴿ **وإذا حييتم بتحية فحيوا بأحسن منها أو**

ردوها . **إن الله كان على كل شيء حسيباً .** ﴾ فالمسلم مأمور أن يحسن في فعله وقوله جهد الطاقة ، حتى ينتهي به الإحسان إلى الكمال الذي هو أليق به وأقرب إلى مقاصد دينه .

وهذا الإحسان الذي أمر به المسلمون عام لا يخص فريقاً دون فريق إلا من ظلم واعتدى فليس له من إحساننا نصيب .

يقول القرآن الكريم : ﴿ **ولا تجادلوا أهل الكتاب إلا بالتي هي أحسن إلا الذين ظلموا منهم .** ﴾ .

الطريقة المثلى والدين الأحسن في شرعة القرآن أن يؤمن الإنسان بالله ويخلص له العمل ويفعل الحسن . بين هذا القرآن في قوله : ﴿ **ومن أحسن ديناً ممن أسلم وجهه لله وهو محسن** ﴾ . وفي قوله : ﴿ **ومن يسلم وجهه إلى الله وهو محسن فقد استمسك بالعروة الوثقى** ﴾ ، وقوله : ﴿ **بلى من أسلم وجهه لله وهو محسن فله أجره عند ربه ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون** ﴾ .

هذه هي الطريقة المثلى والخطة التي تكفل للإنسان سعادته واجتماع القلوب عليه وتجنبه الشقاء والبغضاء والشحناء مما يجعل الحياة شراً والأرض سعيراً . في الكتاب المبين : ﴿ **ولا تستوى الحسنة ولا السيئة . ادفع بالتي هي أحسن فإذا الذي بينك وبينه عداوة كأنه ولي حميم** ﴾ وهذا مطلب عظيم يحتاج إلى رياضة النفس على الخير وصبرها على المكاره . لذلك يقول القرآن بعد هذه الآية ﴿ **وما يلقاها إلا الذين صبروا ، وما يلقاها إلا ذو حظ عظيم** ﴾وقال في آية أخرى : ﴿ **والذين صبروا ابتغاء وجه الله وأقاموا الصلاة وأنفقوا مما رزقناهم سراً وعلانية ويدرءون بالحسنة السيئة أولئك لهم عقبى الدار** ﴾ .

وبيّن القرآن أن الإحســـان يكـون في كل عمـل وفي كل قـول . فـالاعتراف بـالحـق والإيمـان بـه إحسـان . حكى القرآن عن جمـاعـة من القسيسين أنهم آمنوا وقـالوا فيما قـالـوا .﴿ **وما لنا لا نـؤمن بـالله وما جاءنـا من الحق ونطمـع أن يـدخلنـا ربنـا مـع القـوم الصـالحين** ﴾ وقـال عقب هـذا ﴿ **فأثابهم الله بما قـالوا جنـات تجري من تحتهـا الأنهـار خـالـدين فيهـا وذلـك جـزاء المحسنين** ﴾ . فقـد عـد قـولهم المنبيء عن الإيمـان إحسـانـاً . وفي آيـة أخري يعـد العفـو عن المسيء والصفـح من الإحسـان قـال : ﴿ **فـاعف عنهم واصفـح إن الله يحب المحسنين** ﴾ وعـدّ استجـابـة المسلمين لـدعـوة الرسـول إلى تعقب المشركين بعـد مـاأصـاب المسلمين في أحـد ـ عـدّ هـذا احسـانـاً في قـولـه : ﴿ **الـذين استجـابـوا لله والرسـول من بعد مـا أصـابهم القرح ، للـذين أحسنـوا منهم واتقـوا أجر عظيم** ﴾ وعـد احتمال المشقـة في سبيـل الحـق إحسـانـاً فقـال في المجاهـدين : ﴿ **ذلـك بـأنهم لا يصيبهم ظمأ ولا نصب ولا مخمصـة في سبيـل الله ، ولا يطئـون مـوطئـاً يغيـظ الكفـار ولا ينـالـون من عـدو نيـلاً إلا كتب لهم بـه عمـل صـالـح إن الله لا يضيـع أجر المحسنين** ﴾ .

النفس الكريمـة الطيبـة تنزع إلى كل عمـل حسن وتنفر من كل قبيـح ولا تقف في الإحسـان عنـد حـد ، فهي تـواقـة إلى الأحسن فـالأحسن ؛ تحسن في كل فعـل وفي كل قـول وتطمـح في كل درجـة إلى مـا فـوقهـا وذلـك فضل الله يؤتيه من يشاء .

والمحسنـون مقربـون إلى الله سعـداء بقربـه ومحبتـه ، لا يفـارقهم إحسـانـه ورحمتـه . يقـول القرآن : ﴿ **وأحسنـوا إن الله يحب المحسنين** ﴾ ويقـول ﴿ **إن الله مـع الـذين اتقـوا والـذين هم محسنـون** ﴾ ويقـول : ﴿ **إن رحمةالله قريب من المحسنين** ﴾ .

وأما جزاء الإحسان فقد قال فيه القرآن : ﴿ **هل جزاء الإحسان إلا الإحسان** ﴾ . وقال : ﴿ **للذين أحسنوا الحسنى وزيادة** ﴾ جزاء الإحسان أن يحسن الله إلى المحسنين في الدنيا الأخرة . جزاؤه في الدنيا صلاح النفس وتزكّيها وفتح أبواب المعرفة عليها واستمتاعها بالحياة على أحسن وجه وتمكنها في الأرض وسيادتها وبلوغ الكمال الذى أراده الله للمحسنين . جاء في سورة يوسف : ﴿ **ولما بلغ أشده آتيناه حكماً وعلماً . وكذلك نجزى المحسنين** ﴾ وقال في السورة نفسها : ﴿ **وكذلك مكنّا ليوسف في الأرض يتبوأ منها حيث يشاء . نصيب برحمتنا من نشاء ولانضيع أجر المحسنين** ﴾ . جزاء الإحسان في هاتين الآيتين إيتاء الحكمة والعلم والتمكن في الأرض والرحمة . وأعظم به من جزاء .

وأما في الآخرة فحسبك هذه الآية : ﴿ **إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات إنا لا نضيع أجر من أحسن عملا . أولئك لهم جنات عدن تجرى من تحتهم الأنهار** ﴾ .

ذلكم الإحسان الذى يدعو إليه القرآن ، وذلكم جزاؤه في الدنيا والآخرة . على الإنسان أن يحسن ما استطاع ولا جناح عليه بعد إحسانه أن يستمتع بالطيبات من الرزق في هذه الحياة . وأن يبلغ في هذه الدنيا ما يشاء ! وقد تلوت أنت هذه الآية : ﴿ **ليس على الذين آمنوا وعملوا الصالحات جناح فيما طعموا إذا ما اتقوا وآمنوا وعملوا الصالحات ثم اتقوا وآمنوا ثم اتقوا وأحسنوا والله يحب المحسنين** ﴾ .

وهذه آية أخرى جامعة : ﴿ **وابتغ فيما آتاك الله الدار الآخرة ، ولا تنس نصيبك من الدنيا ، وأحسن كما أحسن الله اليك ، ولا تبغ الفساد في الأرض ، إن الله لا يحب المفسدين** ﴾

ذلكم هدى القرآن في الإحسان ، وقد جاء في السنة حديث جامع : إن الله كتب عليكم الإحسان في كل شيء فإذا قتلتم فأحسنوا القتلة وإذا ذبحتم فأحسنوا الذبحة . يعني إذا لم يكن بد من قتل إنسان قصاصاً فليقتل قتلة حسنة لا مثلة فيها ولا تعذيب ؛ وإذا ذبحتم الحيوان فاذبحوه بأحسن وسيلة ، الوسيلة التي تؤدي إلى المقصود دون تعذيب كذلك .

وبهذا الهدى سار المسلمون الأولون ، فأحسنوا أقوالهم وأفعالهم وأحسنوا إلى الناس وبالغوا في الإحسان والإنفاق فنالوا جزاء المحسنين من السيطرة على الدنيا بالحق والسعادة بها وحسن الجزاء في الآخرة .

وإن فيهم لأسوة حسنة للمتخلفين من بعدهم ، فليجدُّوا في الإحسان وليتنافسوا فيه . ليحرصوا على الإحسان في العلم والمعرفة والقول والفعل وفي كل صنعة وكل نظام تستقيم به أمور الناس على هذه الأرض ، فقد دعا الإسلام إلى الإحسان كاملاً عاماً شاملاً . ومن أخلق من المسلمين بإجابة هذه الدعوة ؟

* * *

الصــدق

الصدق هو الإبانة عن الحق ، والإخبار بالواقع . وبـه يستقيم التفـاهم بين النـاس ، ويكون التنـاصح والتعـاون ، وتسجل الحقـائق والوقـائـع ؛ وبـدونـه يصير تخاطب الناس غشاً ، وتفاهمهم باطلاً ، وتعاونهم محالاً .

يتخـاطـب النـاس ليخبر بعضهم بعضاً عن حقـائـق واقعـة في العـالم أو في أنفسهم ، أوليبين بعضهم لبعض عن أمل يأمله ، ورأى في بلوغ هـذا الأمل . فإن كان الكلام غير مبين عن الحق فهو تضليل يسّير أعمال الناس على ضلال ، وهو غش يؤدى إلى التفريق بين الناس لا التعاون .

ثم الكـذب يجر بعضـه بعضـاً لأنـه لا مكان لـه بين حقـائق العـالم فيُضطّر الكاذب إلى تغيير حقائق كثيرة ليخيل كذبه على السامع وليلائم بين ما أخبره به وبين حقائق تخالفه . فإذا قال قائل : قابلت فلاناً أمس في مكان كـذا ، فقيل لـه إن فـلانـاً لم يكن أمس في هـذا المكان اضطر إلى أن يقـول جـاء إليـه ثم سافر . وإن قيل إن هـذا المكان لم يكن الـذهـاب إليـه أمس ممكنـاً ادعى من الأباطيل ما يوهم أن الذهـاب إليـه قـد أمكنـه ، ولم يكن بـد من سلسلـة من الأكاذيب يربط بها كلامه بالوقائع المعروفة بين الناس .

وعلى قدر ما في كلام الناس من صدق توافق أعمـالهم هـذا العـالم فتنجح ، وعلى قدر الكذب تبعد الأعمال من الحقائق فتخيب ... .

وقـد أجمعت أخلاق الأمم وشرائعهـا على الـدعوة إلى الصـدق ، والنهي عن الكذب ووكّـدت تجـاربُ النـاس مـا عرفوا في الصـدق من خير ، ومـا رأوا في الكذب من شر . وهل كان التخـاذل بين النـاس والتنـافر والتحـارب والضلال إلا بضروب من الكذب والغش والخديعة ؟ وهل ذهب كثير من أعمال الناس ضياعاً وكثير من أقوالهم هباء إلا بالكذب ونتائجه ؟

والقرآن الكريم ، هو ترجمان الدين الحق و الدعوة الصادقة ، يؤكد الدعوة إلى الصدق ويشيد بذكر الصادقين ، ويشتد في النهي عن الكذب ويلعن الكاذبين . كررت هذا آياته ، ودارت عليه دعواته .

والصدق ، فيما يتبينه قارىء القرآن ، يكون في القول والفعل ؛ فكما يصدق الإنسان بالإنباء عن الحق يصدق بتأدية الواجب المرجوّ منه . فمن أوفى بعهده ، ومن ثبت في نصرة الحق الذي يدعو إليه ، ومن قام في الخير المقام الذي يجدُرُ به ، فقد صدقت أفعاله ووافقت ما ينتظر منه في معترك الحياة .

وقد عدد القرآن خلالاً من البر كالصدق والوفاء بالعهد والصبر في الشدة وختم الآية بقوله : ﴿ **أولئك الذين صدقوا وأولئك هم المتقون .** ﴾ فسمى هذه الأعمال صدقاً .

ويقول القرآن الكريم : ﴿ **من المؤمنين رجالٌ صدقوا ما عاهدوا الله عليه فمنهم من قضى نحبه ومنهم من ينتظر وما بدلوا تبديلا** ﴾ ويقول : ﴿ **وقل رَبِّ أدخلني مدخل صدق وأخرجني مخرج صدق واجعل لي من لدنك سلطاناً نصيراً** ﴾ .

مدخل الصدق ومخرج الصدق أن يدخل الله الإنسان في كل الأمور إدخالاً صادقاً ملابساً للحق والخير ، وأن يخرجه من الأمور كلها إخراجاً مقارناً للحق والخير ، فيجعل تصرفه في الأمور كلها كما يجب عليه ويرجى منه ، في غير رياء ولا تزوير ولا تضليل ولا غش ولا خداع .

وقال القرآن في جزاء المؤمنين والمتقين : ﴿ **وبشر الذين آمنوا أن لهم قدم صدق عند ربهم** ﴾ وقال : ﴿ **إن المتقين في جنات ونهر في مقعد صدق عند مليكٍ مقتدر** ﴾ فقدم الصدق يراد بها المسعى الصادق الذي يدّخر عند الله جزاؤه ، أو المقام المحمود عند الله تعالى ، ومقعد الصدق المنزلة التي تفي بما

استحقوا من ثواب .

والكذب فيا يفهم من الآيات القرآنية يكون كذب الأقوال وكذب الأفعال كذلك . فمن فعل غير ما يقتضيه حاله فهو كاذب ، ومن حشر نفسه في غير زمرته فقد كذب ، ومن اتخذ غير شارته فقد كذب ، ومن قعد عن نصرة الحق وهو قادر فهو في مقام الكاذبين ، ومن فرّ عما يلزمه الثبات له أو الدفع عنه فقد كذبت دعواه ومظهره ؛ فإن هؤلاء جميعاً قد وعدت أحوالهم وأخلفت أفعالهم ، وقد حكى القرآن الكريم عن قوم آمنوا بالرسل ثم دعوا إلى الارتداد ، أنهم قالوا : ﴿ **قد افترينا على الله كذباً إن عدنا في ملتكم بعد إذ نجّانا الله منها** ﴾ . فقد سمّوا الرجوعَ إلى الباطل بعد أن استبانت دلائل الحق ، كذباً على الله ، وقريب من هذا قوله في قصة يوسف : ﴿ **وجاءوا على قميصه بدم كذب** ﴾ .

وحسبنا هذا بياناً لوصف القرآن الأفعال بالصدق والكذب كما توصف الأقوال .

والقرآن الكريم يأمر بالصدق في كل صُوَره ، وينهي عن الكذب في جميع أشكاله ؛ وكفى بقوله : ﴿ **يأيها الذين آمنوا اتقوا الله وكونوا مع الصادقين** ﴾ .

واشتد القرآن في تقبيح الكذب ولعن الكاذبين ؛ وجعل الكاذب أظلم الناس ، ووصفه أشنع الأوصاف .

قال : ﴿ **فمن أظلم ممن افترى على الله كذباً أو كذب بآياته إنه لا يُفلح المجرمون** ﴾ . وقال : ﴿ **ومن أظلم ممن افترى على الله كذباً أولئك يعرضون على ربهم ، ويقول الأشهاد هؤلاء الذين كذبوا على ربهم ، ألا لعنة الله على الظالمين** ﴾ وقال : ﴿ **فمن أظلم ممن كَذَبَ على الله وكَذّب بالصدق إذا جاءه ؟ أليس في جهنم مثوىً للكافرين . والذي جاء بالصدق وصدّق به أولئك هم المتقون ، لهم ما يشاءون عند ربهم ذلك جزاء المحسنين ، ليكفّر**

الله عنهم أسوأ الذي عملوا ويجزيهم أجرهم بأحسن الذي كانوا يعملون ﴾ . وقال : ﴿ ويوم القيامة ترى الذين كذبوا على الله وجوههم مسودّة . أليس في جهنم مثوى للمتكبرين ﴾ . قال : ﴿ انظر كيف يفترون على الله الكذب . وكفى به إثماً مبيناً ﴾ .

وبين القرآن أن الكذب يمنع صاحبه الهدى ، ويجور به عن القصد . وكيف يهتدي الكذاب وهو يتعمد طمس الحق ، والعدول عن الرشد ؟ إنما يهدي الله من أخلص قوله وفعله وتحرّى الحق جهده غير مائل مع الهوى ، ولا سائر مع الباطل . قال : ﴿ إن الله لا يهدي من هو كاذب كفار ﴾ . وقال : ﴿ إن الله لا يهدي من هو مسرف كذاب ﴾ .

وقد بالغ القرآن في عقاب بعض الكذبة فجعل كلامهم مظنة الكذب دائماً وأهدر شهادتهم . وتلكم عقوبة المفترى على النساء الصالحات . قال : ﴿ والذين يرمون المحصنات ثم لم يأتوا بأربعة شهداء فاجلدوهم ثمانين جلدة ولا تقبلوا لهم شهادة أبداً وأولئك هم الفاسقون ﴾ . وقال : ﴿ إن الذين يرمون المحصنات الغافلات المؤمنات لعنوا في الدنيا والآخرة ولهم عذاب عظيم . يوم تشهد عليهم ألسنتهم وأيديهم وأرجلهم بما كانوا يعملون ﴾ .

بل أمر القرآن بالتثبت وحذر من الظن الكاذب وجعله إثماً فقال : ﴿ اجتنبوا كثيراً من الظن إن بعض الظن إثم ﴾ ؛ ونهى عن مظان الكذب والخطأ فقال : ﴿ ولا تقف ما ليس لك به علم إن السمع والبصر والفؤاد كل أولئك كان عنه مسئولا ﴾ وكذلك بين القرآن أن عاقبة الكذب أن يمرد الإنسان على مخالفة الصدق ومجانبة الحق حتى يستقر النفاق في قلبه قال : ﴿ فأعقبهم نفاقاً في قلوبهم إلى يوم يلقونه بما أخلفوا الله بما وعدوه وبما كانوا يكذبون ﴾

وكثيراً ما يقرن القرآن الكريم الصبر بالصدق ، وهما من منبع واحد ، هما من المروءة والكرامة والأنفة والشجاعة التي تقول الحق غير مبالية ، وتصبر على الشدائد غير مستخذية .

الصدق في القول والفعل خلق يبين عن صفاء النفس وخلوصها وصراحتها وحبها الحق ، وميلها عن الباطل ، ونفورها من المداجاة والمراءاة والنفاق والخداع ، خلق يأبى التكلف والتصنع ويربأ عن المذلة والخنوع ، خلق ينطق بالإباء والشجاعة ، وحب الخير للناس ، وتحكيم قوانين الله فيا بينه وبينهم لا يبغي صاحبه عن هذه القوانين حِولاً ، ولا يرضى لمنفعة نفسه الاحتيال لإخفاء الحقائق ، والتماس غيرها من الوسائل المخترعة المزورة .

وذلكم هدى القرآن وشرعة الإسلام ، وسيرة المسلمين الأولين نطقت به مآثرهم في الحرب والسلم في معاملة العدو والصديق . كانوا في أقوالهم وأفعالهم حرباً على الباطل والبغي والكذب ، فكانت سيرهم مثلاً من الحق الصريح الذي لا يشوبه رياء ولا مدارة ولا مداجاة ، فجزاهم الله بصدقهم أن مكن لهم في الأرض وملكهم أزمّة الأمم يسوسونها بعدل الله ابتغاء مرضاة الله كما قال : ﴿ **ليجزي الصادقين بصدقهم** ﴾ .

وتلكم أيها المسلمون الأسوة الحسنة فاجعلوها نصب أعينكم واتخذوها هدياً في رضاكم وغضبكم ، ومنشطكم ومكرهكم ، وحربكم وسلمكم ، وشدتكم ورخائكم . فإنما هي قانون الله وهدى القرآن وصدق الإسلام وميراث السلف الصالح ، وذخر الخلف الصالح ﴿ **يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وكونوا مع الصادقين** ﴾ صدق الله العظيم .

* * *

الصبر

الصبر خلق يعصم النفس من اليأس إذا طال بها الطريق إلى غاياتها ، ويمنعها من الارتداد إذا سدّت العقبات سبيلها ، ويكبر بها عن الجزع إذا نزلت بها من أحداث الزمان نازلة .

في الحياة أعمال شاقة لا يستطيع الاضطلاع بها إلا الصابرون ، وفيها غايات بعيدة لا يبلغها إلا من صبر على مشقة الطريق وبعد المدى .

والأخلاق الفاضلة تنأى بصاحبها عن شهواته ، وتعلو به عن سفاسفه ، وتكبر به عن الهوان ، وتسوم النفس ضروباً من الصدود عن الهوى ، والعفاف عن الشهوة ، ولا يتخلق بهذه الأخلاق إلا أهل الصبر . وفي الحياة عقائد حق ومذاهب خيّرة ينفر منها الناس أولّ عهدهم بها ، وينال الدعاةَ إليها السخرية والأذى والألم في النفس والنقص في المال . فلولا الصابرون ما دعا إلى هذه العقائد داع ، ولا ذهب هذه المذاهب أحد .

الصبر توطين النفس على المشاق والمكاره ، والإباء على الخطوب ، والاستكبارُ عن الخنوع للمصائب ، والثباتُ في الموقف الضنك ، والمقام الهائل ، أو السير إلى الغاية المخوفة حتى يستوفي العملُ أطواره ، ويبلغ نهايته ، ويُنجح الطلب ، ويحمد الدأب .

والصابرون رواسي الأمم كلما زلزلتها الخطوب ، وسكينتها إذا طارت من الذعر القلوب . إذا طاشت الأحلام في مآزق الحرب صبروا حتى يتبلج النصر ، وإذا خارت العزائم في معارك الحياة دأبوا حتى يشرق الحق . والصابرون قادة الأمم إلى الحق والخير والظفر يسلكون إليها الأهوال حين ينكص غيرهم فزعاً ، ويستقيمون على الطريق حين يحيد غيرهم يأساً ، ويواصلون السير حين يقف مَن سواهم عجزاً ، ويحتملون المكاره حين تنوء بكل عاجز ، ويبسمون للمصائب

حين تزلزل كل رعديد . هم الذين يصلون مبادىء الأعمال بغاياتها ، ومقدماتها بنتائجها وإن شق العمل وطال الطريق . هم الذين ينصرون كل دعوة إلى الحق ، وكل مذهب في الخير وإن عظم ما يلقاهم من المحن ، وما يعترضهم من المكاره .

ومن الكلام المأثور : الصبر على الطلب عنوان الظفر والصبر في المحن عنوان الفرج .

والصبر هو تجلي النفس الإنسانية في أكمل صفاتها وأشرف درجاتها ، تجلي النفس الإنسانية في عظمتها تعتز بقواها ، وتستكبر على الأحداث ، ولا تبالي الغضب والعنت ، ولا تخشى الهلاك حتى تبلغ دعوتها واضحة وتؤدي واجبها كاملاً .

ولست أعرف فضيلة أكد القرآن الدعوة إليها توكيده الدعوةإلى الصبر ، إذ كان عماد كل نجاح ، وقوام كل جهاد ، ونظام كل عمل صالح ، وقرين كل خلق فاضل .

الصبر في القرآن قرين الحق لأن الحق لا ينصر إلا بالصبر . قال : ﴿ **والعصر إن الإنسان لفي خسر إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وتواصوا بالحق وتواصوا بالصبر** ﴾ .

والصبر قرين العمل الصالح إلا صبر النفس عما يزيّن لها من الشهوات ، وإقامتها على منهاج الفضيلة الذي يحرمها كثيراً مما تودّ . يقول القرآن : ﴿ **إلا الذين صبروا وعملوا الصالحات أولئك لهم مغفرة وأجر كبير** ﴾ .

وقد جعل القرآن الكريم الصبر وسيلة إلى الإمامة والهداية فمن لم يصبر لم يقوم نفسه ، ولم يستطع الدعوة إلى الحق والمسير إليه والجهاد في سبيله ، قال : ﴿ **وجعلناهم أئمة يهدون بأمرنا لما صبروا وكانوا بآياتنا يوقنون** ﴾ .

وقد أعلى درجة الصابرين وأبان فضل الصبر أعظم إبانة إذ قال : ﴿ **واصبروا إن الله مع الصابرين** ﴾ وحسبك بمن كان الله تعالى معه يسدد قوله وعمله وينصره ، قد ذللت له كل الصعاب وضمن له كل ظفر . إن الله مع الصابرين لأنهم بصبرهم يستجيبون لدعوة الله ويسيرون في سبيله على قوانينه حتى يبلغوا ما وعدهم به ، ومن سار في سبيل الله إلى دعوة الله فأحرِ به أن يوقن بالنجاح وأحر به أن ينال النجاح غير منقوص .

وجعل القرآن الصبر وسيلة إلى إدراك آيات الله في خلقه . وهل كشف الباحثون عن الحقائق إلا الصبر على الطلب والدأب في البحث ؟ قال القرآن في أكثر من آية : ﴿ **إن في ذلك لآيات لكل صبار شكور** ﴾ .

وبين القرآن أن الصبر عُدَّة المؤمنين في جهادهم في هذه الحياة إذ قال : ﴿ **يا أيها الذين آمنوا استعينوا بالصبر والصلاة إن الله مع الصابرين** ﴾ أمرهم أن يفزعوا إلى الله فيما ينوبهم من النوائب ، فيتوجهوا إليه بالصلاة ويصبروا به على المكروه . ونِعمَ هذان عوناً على كل خير .

كما جعل الصبر في آخر درجات الفضائل حين عددها في آية البر فقال : ﴿ **ليس البر أن تولوا وجوهكم قبل المشرق والمغرب ، ولكن البر من آمن بالله واليوم الآخر والملائكة والكتاب والنبيين وآتى المال على حبه ذوى القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل والسائلين وفي الرقاب وأقام الصلاة وآتى الزكاة والموفون بعهدهم إذا عاهدوا والصابرين في البأساء والضراء وحين البأس . أولئك الذين صدقوا وأولئك هم المتقون** ﴾ .

وبين القرآن أن الله سبحانه يحب الصابرين الذين يثبتون على الشدائد ، ولا يهنون لما يحزّ بهم من النوائب : ﴿ **وكأيّن من نبيٍّ قاتل معه ربيون كثير فما وهنوا لما أصابهم في سبيل الله وما ضعفوا وما استكانوا والله يحب**

الصابرين ﴾ وحسبك بمحبة الله نجحاً وفلاحاً وسعادة .

والصبر قوة أعظم من قوة العدد ، تغلب به الفئة القليلة الفئة الكثيرة . قال في قصة طالوت وجالوت : ﴿ **فلما جاوزه هو والذين آمنوا معه قالوا لا طاقة لنا اليوم بجالوت وجنوده . قال الذين يظنون أنهم ملاقوا الله كم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة بإذن الله ، والله مع الصابرين . ولما برزوا لجالوت وجنوده ، قالوا ربنا أفرغ علينا صبراً وثبت أقدامنا وانصرنا على القوم الكافرين . فهزموهم بإذن الله** ﴾ . وكذلك أمر القرآن المسلمين أن يلقوا عدوهم الأكثر عدداً وهم صابرون ، وبشرهم بأن الجماعة منهم تغلب عشر أمثالها بالصبر ، وجعل الصبر أكثر من تسعة أمثال العدو غَناء في الحرب . قال في سورة الأنفال : ﴿ **يا أيها النبي حرض المؤمنين على القتال . إن يكن منكم عشرون صابرون يغلبوا مائتين ، وإن يكن منكم مائة يغلبوا ألفاً من الذين كفروا بأنهم قوم لا يفقهون .** ﴾ .

ولما أراد أن يخفف عن المسلمين هذا التكليف أمرهم بأن تلقى الجماعة منهم مثليها فقال : ﴿ **الآن خفف الله عنكم وعلم أن فيكم ضعفاً ، فإن يكن منكم مائة صابرة يغلبوا مائتين ، وإن يكن منكم ألف يغلبوا ألفين بإذن الله والله مع الصابرين .** ﴾ فأقل مراتب الصابرين أن يغلبوا ضعفهم . والحق أن العدد لا يثبت للصبر ، وأن كثرة العدد فاشلة إذا خذلها الصبر ، وأن قلته ظافرة إذا أيدها الصبر . وربما تغلب الفئة الصابرة مثليها ، وربما تغلب عشر أمثالها أو مائة مثل . وحوادث التاريخ على ذلك شاهدة .

وأما في غير الحرب فالواحد الصابر يدعو إلى طريقته ، ويصبر على دعوته ، ويحتمل في سبيلها ما يلقى من عنت وأذى وسخرية حتى يغلب بصبره الأمة الكبيرة ويقودها إلى الخطة التي يدعو إليها .

وأما جزاء الصابرين فالظفر في الدنيا والطمأنينة التي تلقى الشدائد ثابتة راضية ورضا الله تعالى وحسن الثواب في الآخرة . يقول القرآن الكريم : ﴿ وبشر الصابرين الذين إذا أصابتهم مصيبة قالوا إنّا لله وإنا إليه راجعون . أولئك عليهم صلوات من ربهم ورحمة وأولئك هم المهتدون ﴾ . وقال : ﴿ أولئك يؤتون أجرهم مرتين بما صبروا ﴾ وقال ﴿ ولنجزين الذين صبروا أجرهم بأحسن ما كانوا يعملون ﴾ وقال في جزاء الآخرة : ﴿ والذين صبروا ابتغاء وجه ربهم وأقاموا الصلاة وأنفقوا مما رزقناهم سراً وعلانية ، ويدرءون بالحسنة السيئة أولئك لهم عقبى الدار جنات عدن يدخلونها ومن صلح من آبائهم وأزواجهم وذرياتهم والملائكة يدخلون عليهم من كل باب سلام عليكم بما صبرتم . فنعم عقبى الدار ﴾ .

وللصوفية من المسلمين تعليم في الصبر وتربية عليه جديران بأهل القرآن الذين استمعوا له واهتدوا بهديه ، وقد كانت أقوالهم وأفعالهم أمثلة في الصبر .

يقول الجنيد : الصبر تجرع المرارة من غير تعبيس . وقال ذو النون المصرى : الصبر التباعد عن المخالفات ، والسكون عند تجرع غصص البلية ، وإظهار الغنى مع حلول الفقر بساحات المعيشة . وقال ابن عطاء الله السكندرى : الصبر الوقوف مع البلاء بحسن الأدب . وقال أبو عثمان : الصبار الذى عود نفسه الهجوم على المكاره . وقال عمرو بن عثمان : الصبر هو الثبات مع الله تعالى وتلقي بلائه بالرحب والدعة . وقال أبو محمد الجريرى : الصبر ألا يفرق بين حال النعمة والمحنة مع سكون الخاطر فيهما . والصبر هو السكون مع البلاء مع وجدان أثقال المحنة وقالوا : تجرع الصبر فإن قتلك قتلك شهيداً ، وإن أحياك أحياك عزيزاً .

وقد كانت سيرة الرسول صلوات الله عليه وسير أصحابه والمسلمين من بعدهم

امتثالاً لأمر القرآن ، وتصديقاً لبشارته ، وإكباراً لتربيته فغلبوا العدد الكثير والخطوب المتزاحمة بإيمانهم وصبرهم ، ولم يعسر عليهم مطلب ، ولا أملّهم دأب ، ولا فاتت عزائمهم غاية ، ونالوا جزاء الصابرين في الدنيا طمأنينة وظفراً وغلبة ؛ والله ولي جزائهم في الآخرة .

ما كان صبرهم استكانة للمصائب ولكن استخفافاً بها ، ولا ذلاً للخطوب ولكن كبراً عليها ، ولا خنوعاً للقوة ولكن ثباتاً لها ، وتصمياً على صدمها ، والظفر عليها . يقول القرآن الكريم : ﴿ **يأيها الذين آمنوا إذا لقيتم فئة فاثبتوا واذكروا الله كثيراً لعلكم تفلحون . وأطيعوا الله ورسوله ، ولا تنازعوا فتفشلوا وتذهب ريحكم ، واصبروا إن الله مع الصابرين** ﴾ . صدق الله العظيم .

عبد الوهاب عزام

الفهرس

ـ أخلاق القرآن ٥
ـ العدل ١١
ـ الوفاء بالعهد ١٧
ـ الإحسان ٢٣
ـ الصدق ٣١
ـ الصبر ٣٧
الفهرس ٤٣

* * *

يطلب هذا الكتاب من مكتبة النور بالقاهرة

٨ شارع الأهرام ، روكسي ، مصر الجديدة ، ت ٢٥٨٤٥٦٢

الفاروق الحديثة للطباعة والنشر
خلف ٦٠ ش راتب باشا حدائق شبرا
ت : ٦٤٧٥٢٦ القاهرة